الفصل الأول

الانبثاق من الحي اليهودي

يعد القرن الحادي عشر للميلاد أكثر القرون إثارة وأهمية، بالنسبة لجميع العصور المسيحية، فحالما بدأ هذا القرن، وتخطى عقده الثالث تولت عائلتان دور الزعامة على مسرح التاريخ الروماني وهما: عائلة بيرليوني Berlioni وعائلة فرانجيباني Frangipani وقد انحدرت هاتان العائلتان من طبقة من النبلاء القدماء أصحاب الأملاك الشاسعة، في روما وما حولها، وسيطرتا على المدينة منذ أيام القياصرة، وكان هؤلاء الأرستقراطيون العريقون الذين يعرضون التماثيل النصفية في قلاعهم وما حولها، كشاهد على عراقتهم وقدمهم، شديدي الفخر لانتمائهم إلى أصول وثنية، ترجع إلى ما قبل المسيحية، ولكن ظهر بعض الخلاف بين هاتين العائلتين، فقد كانتا تمثلان طبقة الأغنياء الجدد، في تلك المدة تلك الأرستقراطية الثرية بأموالها والتي برزت حديثاً نتيجة لتطور الحضارة في المدن في ذلك القرن، وكانت عائلة فرانجيباني تستطيع أن تدعي سابقة التقدم لبضعة أجيال في مضمار النبالة، حتى أن أفرادها كانوا يقتنون الرنوك، أما عائلة بيرليوني فقد احتاجت إلى وقت أطول حتى حصلت على درع عليه شارة (رنك) النبالة العائلية، وإذا فحصنا هذه الشارة اليوم كما أعيد نسخها في تواريخ القرن السابع عشر، نجد أنها تمثل شكلاً مرتجلاً متأخراً في زمنه، وهي تصور أسداً ذهبياً وحقلاً أرجوانياً، وربما كان هذا الأسد هو أسد يهوذا، لأن عائلة بيرليوني قد أتت من الحي اليهودي (الغيتو).

كم من الزمن مضى على هذه العائلة في روما؟ ومن أين أتت قبل ذلك يا ترى؟ ما من أحد يعلم الجواب، إذ عبثاً يفتش الباحث عن أسمائهم في المقابر اليهودية الست تحت الأرض في تلك القاعات المظلمة، حيث زينت الأضرحة بالرمز اليهودي القديم، وهو الشمعدان ذو السبعة أغصان، وحيث تجد بين أسماء الموتى المكتوبة باللغة اليونانية واللاتينية كلمة (شالوم)، والتفسير الأكثر احتمالاً هو أن عظام موتى (بيرليوني) ترقد في مقابر أقدم من هذه وهي مقابر مونتيفيدر Monteveder وهي تقع على بعد نحو ثلاثين

قدماً تحت فيلا تورلونيا Torlonia ، وفي فيلا تورلونيا هذه قضى موسوليني عدداً من السنين، يعقد حفلاته الممتعة، الساحرة الفاتنة، ومغامراته الغرامية، ويرتب مؤامراته الخاصة، وقد تساءل المؤرخ (هاري ليون): «ألم يدرك موسوليني عند إصداره أول قوانينه اللاسامية ضد يهود إيطاليا، الذين عدّهم أجانب، أن تحت هذه الحدائق التي كان تخطر بالمشي فيها، تمتد الخطوط الباهتة، لسراديب مقبرة يهودية قديمة؟».

ربما أدرك موسوليني ذلك، ولكن معرفته هذه لم تعق عمله، ذلك أن اليهود كانوا بالنسبة للديكتاتور مجرد «أجانب» على الرغم من أن طائفة اليهود في روما، هي أقدم الطوائف من نوعها في أوروبا، فمنذ القرن الأول قبل الميلاد، عندما كان هنالك حوالي ثمانية ملايين يهودي[1] تحت الحكم الروماني، عاش كثير منهم ومن مهاجريهم في العاصمة العظيمة، وقد دفنوا موتاهم في هذه السراديب العظيمة تحت الأرض.

ويمكننا أن نفترض أنه في الوقت الذي تبدأ به قصتنا، أي في حوالي عام 1030م، كانت عائلة بيرليوني تعيش في روما، منذ عدة أجيال، إن لم نقل منذ عدة قرون، ذلك أن روما كانت مدينة تفخر بماضيها، وتكره الأجانب بشدة إلى درجة أنه كان من النادر أن يتمكن أي غرباء، حتى من إيطاليا نفسها، من الاستقرار في روما بأمان، قبل مضي عدة أجيال، وبالنسبة لأسرة بيرليوني من المؤكد أنها كانت مستقرة تماماً في روما في ذلك الوقت، وكان عميد هذه العائلة الذي يدعى «باروخ» رجلاً غنياً جداً، يملك مصرفاً ولاشك أن ثروته قد تأسست قبل ذلك، في زمن أجداده، ولكن من هم هؤلاء الأجداد؟ إننا لن نستطيع أن نتعرف عليهم بفحص الأسماء في السراديب والمقابر تحت الأرض، لأن هذه العائلة لم يكن قد أطلق عليها اسم بيرليوني الإيطالي في ذلك العصر السحيق، فنحن لا نعرق حتى هوية والد باروخ نفسه.

نحن نعرف أن هذه العائلة قد عاشت في تراستفيري Trastevere وهو حي من أحياء روما، وعلى الضفة اليمنى لنهر التيبر عبر الفوريوم[2] الروماني القديم،

---

(1) كذا يورد المؤلف هذه العبارة كمسلمة من المسلمات، دون أن يذكر المصدر أو يأتي بالدليل، أو يبين مواطن عيش هؤلاء الملايين، ومن المرجع أن العدد كان دون واحد على عشرة آلاف من هذا الرقم.

(2) الفوريوم: هو السوق، أو الساحة العامة، في أية مدينة رومانية.

فالتراستفيري لم يكن غيتو بالمعنى المعروف للكلمة، ذلك أن كلمة الغيتو صنعت في البندقية في القرن السادس عشر حيث أقيم الحي اليهودي على مقربة من المكان المدعو (غيتو نوفو) أي مصنع المدافع، ومع أن هذا الاصطلاح لم يكن موجوداً في روما في القرن الحادي عشر، إلا أن معظم يهود روما كانوا يعيشون في حي واحد، وهو التراستفيري فيما عدا أسر عاشت في مخيم (حي) مارتيوس.

لقد كان التراستفيري حياً يهودياً، منذ القرن الأول قبل الميلاد، ففي أيام الإمبراطورية الرومانية، عندما عاش في روما حوالي خمسين ألف يهودي، كان هنالك سبعة من الأحد عشر كنيساً معروفاً، موجودة في التراستفيري، وقد بنيت كنيسة سانتا ماريا هناك أيضاً، وهي أقدم كنيسة رومانية في تراستفيري، شيدت في القرن الرابع في موقع تدفق منه النفط، وبدلاً من بناء برج معدني بنى الناس كنيسة، وقد كانت رائحة البترول تفوح في المنطقة بأكملها، مع أن هذه الرائحة ربما كانت أقل الروائح كراهية وإثارة للاشمئزاز، لأن تلك المنطقة لم تكن من المناطق النظيفة، أو المستملحة الجوار، فقد كانت كما وصفها أحد مؤرخي روما القدماء: «منطقة تتسم بالشوارع الضيقة، وهي مزدحمة بالسكان، وفيها بيوت ومساكن متراكمة بعضها فوق بعض، وهي تعج بالسكان، ويشير الكتاب القدماء إلى السمعة اللاأخلاقية للبقعة، فقد كان فيها الحواة والمشعوذين، والسحرة والبصارين الذين يخبرون بالمستقبل، وبائعو الملح الكثيرو الضجة، وبائعو السمك، والحمص المسلوق، والنقانق الساخنة، والباعة المتجولون، وصغار الكسبة المتجمعون في الشوارع، وهنا كانت البقاع البائسة للفقراء والمهاجرين غير المتجانسين، الذين يسكنون بشكل تعيس في مساكن موجودة في أبنية تزدحم بسكانها، بحيث يستوعب البناء الواحد المئات من السكان، كما هو الحال في روما، ونابلي، حتى في هذه الأيام، وخصوصاً في الأحياء الفقيرة، إذ هم معرضون لأخطار الحرائق، وانهيار المنازل عند فيضان نهر التيبر، تلك الحوادث التي لم تكن قليلة، ولا نادرة، ومع هذا ففي وسط هذه اللوحة البائسة، اندفعت قصور النبلاء الفاخرة الشامخة.».

وتغيرت في بداية القرن الحادي عشر الميلادي حالة روما، بشكل جذري واختلفت عن تلك الأيام التي كانت خلالها عاصمة الإمبراطورية الرومانية الزاهية،

التي كانت تعج بالسكان والحركة، وأصبحت الآن (القرن الحادي عشر) مدينة الخرائب والأطلال، ولم يبق منها ما ينبض بالحياة سوى مقر البابا، ولقد عانت الجماعة اليهودية من المحنة نفسها، فتضاءلت في العدد، فانخفض عدد السكان اليهود من خمسين ألف نسمة إلى ألف نسمة فقط، ولكنها أصبحت مركزاً من مراكز الفكر والثقافة اليهودية، ولقد كان للقرون المتعاقبة أكبر الأثر في تشكيل الجماعة اليهودية، لأن اليهود قد تقاطروا إلى روما من جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية منذ حوالي ألف عام، وحافظوا على كنسهم كجزء من وجودهم الذاتي داخل المجتمع اليهودي، وكان أقدم هذه الكنس كنيس (فيرنا كلاسيان)، حيث كان يصلي اليهود المولودون في روما، وجميع الملل الأخرى مثل الأجريبانيين Aggrippan، والتريبولتانيين Tripolitans والعبرانيين، وغيرهم، ولكن بمرور الزمن أصبح اليهود يؤدون صلواتهم باللغة اليونانية، ونسوا اللغة العبرية، كما أنهم أصبحوا يطلقون على أنفسهم أسماء يونانية أو لاتينية، وقلما استعملوا الأسماء التوراتية مثل: أبرهام، واسحق، ويعقوب، وقد هجروا المقابر والسراديب تحت الأرض التي كانوا يستعملونها مثل مقبرة مونتيفيدري Montevedre الموجودة وسط تراستفيري، وأصبح الشعب اليهودي شعباً فقيراً، جاهلاً، ولم يكن بين صفوفه إلا قليل من المتعلمين.

وهكذا فقد كان أمراً لا يخلو من غرابة أن شهد القرن الحادي عشر ازدهاراً وتفتحاً في التفكير والرخاء اليهودي، فقد بدأ بعض أفرادهم يغادرون الحي اليهودي (الغيتو) في تراستفيري، وشيدت كنس جديدة في ريون ديلا ريجولا Rione Della Regola، على مقربة من كنيسة القديس توما، على ضفة نهر التيبر، وبدأت جماعة أخرى من اليهود تستوطن خلف مسرح مارسيللوس Marcrllus (وحيهم هذا موجود حتى اليوم) وقد أصبح الربانيون اليهود معروفين، حتى أن باريس كانت ترسل الرسل إلى روما للاستنارة بآرائهم في المسائل القانونية، وظهر كتاب يدعى «التعليقات الرومانية»، وهو عمل أضيف إلى التلمود، وأصبح واسع الانتشار واعتمد مرشداً لطلاب العلم، وهذا قد ظهر بعض الأشخاص مثل: موسى بن ناسي، وأبراهام بن يعقوب في بداية القرن الحادي عشر، ثم أتى بعدهم يعقوب غؤون، وسباتاي موسى، وكانوا من الزعماء الروحانيين البارزين في

المجتمع، وألف ناثان بن يشي ايل قاموساً في تفسير التلمود، يعد مرجعاً قديماً في هذا المضمار، وهو كتاب روش الشهير.

وبمرور الزمن نرى أن معظم الجماعات اليهودية قد تركت الغيتو القديم وتخلت عن قذارته، واستقرت على الضفة الغربية من نهر التيبر، ولكن عائلة (بيرليوني) لم تفعل ذلك، بل بقيت في مكانها، ولم يكن قراراها هذا بالبقاء وليد الانفعالات النفسية، والتأثر بالعاطفة، ولكنه كان جزءاً من خطة مرسومة، ظلت هذه العائلة تتابع تنفيذها بصبر وأناة، واستهدفت بإصرار الوصول إلى مركز البابوية.

ليس لدينا أية وثائق أو مذكرات تخبرنا عن الوقت الذي قررت به هذه العائلة التحول إلى الديانة المسيحية، أو من الذي أصدر هذا القرار، ولكننا بحكم الظروف نجد أنفسنا مضطرين أن نبدأ قصتنا من المدعو باروخ، فقد كان باروخ هذا رجلاً يهودياً، ثرياً صاحب مصرف، وملاك أراضي واسعة، ويتمتع بسلطة عظيمة، واحترام كبير، ومن المحتمل أنه كان يتقلد عدة وظائف سامية بين يهود روما، وعلى كل حال فقد كان هو المسؤول عن الشؤون الكنسية في بيت العبادة الخاص الذي بنته أسرته في الجزيرة التي كانت تمتلكها تلك الأسرة في نهر التيبر (ستغدو هذه الجزيرة معقل الكنيسة الكاثوليكية في معاركها في المستقبل كما سنرى).

وفي زمن باروخ هذا لم يكن هنالك طائفة يهودية متميزة بمعنى الكلمة الحديث، ولم تكن هنالك حكومة مركزية تعنى بالشؤون اليهودية، ولكن رؤساء الكنس الذين كانوا ينتخبون أحدهم لمنصب الرباني الأعظم، وهؤلاء الرؤساء كانوا يجتمعون في عدة مناسبات، ومن المؤكد أن باروخ كان أحد زعماء الوفود اليهودية، التي كانت توفد لمقابلة البابوات، وأعضاء مجلس الشيوخ، ولم يكن هنالك أي شخص يهودي يتمتع بالحظوة بين رجال السلطة مثل باروخ، ونظراً لثروته وأهميته، ولاشك أيضاً أنه كان يحضر الاحتفالات الهامة والمواجهات والمجابهات الطقوسية مع البابا نفسه.

عند انتخاب بابا جديد، كانت السكولا Scholae في روما، وهي الهيئة التي تمثل المجموعات العرقية والوطنية في المدينة، تجتمع بعد أن يرتدي أفرادها ملابس الأعياد، لتقديم فروض الطاعة والولاء لحاكم الكنيسة الجديد، وكان اليهود يحتلون مركزهم

المخصص لهم على طريق مرور موكب البابا، وأحياناً أمام قلعة القديس أنجلو (ومن المفارقات التي تدعو للسخرية، أن نجد هذه القلعة الضخمة، تتحول إلى واحد من معاقل عائلة بيرليوني)، وهناك كان اليهود يقفون وفي مقدمتهم الرباني العظيم، ومعه أعيان اليهود ورؤساء الكنس ومسني الأسباط، كل منهم ينتظر تلك اللحظة العظيمة التي يتاح له بها مقابلة ذلك الرجل الذي سيصبح ولي نعمته، وكان الرباني الأعظم يحمل درج الكتابات المقدسة التي تحتوي على التوراة، وكانت هذه الدرج تزين بهذه المناسبة كالعروس، بالحرير والمخمل وغيرها من وسائل الزينة، ومن تيجان الذهب والحلي المرصعة بالحجارة الكريمة، وهي عبارة عن هدايا سخية، أهداها رجال أثرياء، ولاشك أن باروخ كان أحدهم، وأخيراً يصل الموكب البابوي، وبعد أن يترجل البابا من المحفة البابوية المحمولة على أكتاف رجال البلاط البابوي، يتقدم الرباني الأعظم ومعه درج الكتابات المقدسة ويقبل خاتم البابا، ويتعهد بولاء الطائفة اليهودية، وتأييدها، ويتسلم البابا الدرج المقدس ثم يخاطب جمهور اليهود.

أما الكلمات التي كان يستعملها البابا زمن باروخ فلا نعرف عنها شيئاً، ولكن يمكننا أن نرسم صورة موثوقة عن الخطاب الذي أدخله البابا كاليلستوس الثاني في الكتاب البابوي المدعو (الولاء) ويفتتح الخطاب بقوله: «إننا نمدح الشريعة المقدسة ونحترمها تلك التي أنزلها الرب القدير على آبائكم عن طريق موسى، ولكننا نستنكر أعمالكم الدينية وكذلك تفسيراتكم الخاطئة للشريعة، وذلك لأن المخلص الذي لازلتم تنظرونه عبثاً منذ عهد طويل، قد ظهر بشخص سيدنا يسوع المسيح وذلك طبقاً لتعاليم رسلنا وديننا، وهو الذي يقيم مع الأب والروح القدس، ويحكم كإله من جيل إلى جيل، إنني أعترف بكل هذا، ولكن لا أقركم على ما تعتقدون».

فإذا ما أرجع البابا الدرج بابتسامة رضا، فهذا يدل على الحماية المستمرة لليهود في المدينة المقدسة، عند ذلك يتنفس اليهود الصعداء، فهم لا ينتظرون أكثر من ذلك، فليس هنا مكان للمناظرات اللاهوتية، على الرغم من أن المناظرات المسيحية اليهودية كانت سائدة في لذلك الوقت، وكانت هذه المناظرات تستقطب الجماهير الغفيرة كما هي الحال في مصارعة الثيران، حيث كان يظهر تماماً أن رجال الأكليرس المسيحيين، لم يكونوا دوماً

على مستوى الكفاءة التي كان يتحلى بها الرباني الأعظم، وقد ذكر هيرنج هاين فيما بعد أن كلا الفريقين كانا يصابان بالوهن ويلفظان الهراء.

ولكن هنا لا يطلب ولا يسمح أن يجيب، فقد سلم اليهود للبابا درج أسفار موسى الخمسة، واشتركوا في سير الموكب حسب التقاليد الرومانية، وكان هذا كل ما ينتظر منهم، والحقيقة أن هذه الاحتفالات لم تكن دوماً خالية من المشاكل، ففي بعض الأحيان كان البابا يرمي الدرج المقدسة في الوحل، كدليل على احتقاره لذلك الشعب الذي يقدس هذا الدرج، وعندها كانت جموع الشعب تضج بالضحك والصراخ، بينما يقف اليهود لا حول لهم ولا طول، ولا يستطيعون أن يتفوهوا بأية كلمة أو أن يقوموا بأي عمل، بل تراهم يرتجفون توجساً لما ينتظرهم من أيام سوداء على يد هذا البابا، إلا أن الشعب لم يكن يستعمل معهم أي عنف ولا أي هجوم بل إن مجرد الهزء والسخرية من قبل هؤلاء الرعاع الجهلة والوحوش غير المختونة يثير الأشجان والآلام في نفوس اليهود، أليست هذه اللحظات الحرجة كافية لتجعل باروخ اليهودي من تراستفيري يبدأ بالتفكير والتمني لحياة أفضل، حياة كان يصلي في كنيسه الخاص لنيلها، فقد كان يقول بمناسبة احتفال اليهود بقدوم الشهر الجديد: «أتمنى حياة خالية من العار والتهكم والتأنيب»، فما دام أن هذا الرجل أحد أفراد الأقلية المحتقرة التي صار لا هم لها ولا رجاء إلا الحصول على الحماية فهو يسير على صراط من الفزع الدائم، ويشعر أن الجميع يحتملونه أكثر مما يتقبلونه، وهكذا أصبحت حياته حقاً حياة العار والتهكم والتأنيب، وهنا ألا يمكننا أن نستنتج أن باروخ بدأ من تلك اللحظة يخطط من أجل أسرته، فإذا بدأنا نعيد النظر في تلك الحقبة وهي مدة المائة والثماني سنوات التي انقضت ما بين عام 1030، وهو عام تحول عائلة بيرليوني إلى المسيحية حتى عام موت البابا أناكلت الثاني، لا يسعنا عندها إلا أن نضع نصب أعيننا تلك الخطة الرائعة المحكمة الحبك! إن تحول عائلة بيرليوني إلى الديانة المسيحية لم يكن مجرد مناورة للحظوة والقبول لدى المجتمع الروماني، إذ عندما يصبح اليهودي العادي مسيحياً، فهو يعد

كالآخرين، ولكن أفراد عائلة بيرليوني لا يعدون كالآخرين، ومن الممتع أن نذكر أن بعض المؤرخين قد دعوا هذه العائلة عائلة (روتشيلد القرون الوسطى) وبالطبع فإن عائلة روتشيلد لم تتحول إلى الديانة المسيحية، بل أفرادها لا يزالون يهوداً عريقين في اليهودية في إنكلترا وفرنسا، وقد بقيت قبور موتاهم تحتفظ بتقاليد العائلة، وكان لعائلة روتشيلد هذه خططها الخاصة وهي من نتاج تفكير (امشيل روتشيلد) الذي كان يلبس فوق رأسه الطاقية الصغيرة، ويدخل قصور العظماء، كما كان يرتدي الشول الصغير في الحي اليهودي في فرانكفورت، ولكن الفرق بين العائلتين هو أن رجال عائلة روتشيلد القرون الوسطى، أي آل بيرليوني قد عقدوا العزم على أن يشتركوا في الحكم مع الحكام، ويؤمنوا مع المؤمنين، وأن يحاربوا مع الشرفاء الشجعان، لقد أصبح التراستفيري وهو الغيتو القديم قاعدة العمليات لدى عائلة بيرليوني، وكما لمحنا من قبل لم يخل هذا الاختيار من سبب وجيه، فقد كانت التراستفيري بوابة روما وكل من يسيطر عليها يصبح وصوله إلى المدينة أمراً سهلاً للغاية، وفي السنوات القادمة نجد أنه قد حدث مراراً أن فتح التراستفيري على يد هذه العائلة للسماح للبابا بدخول روما واستلام المراكز الإستراتيجية فيها، في الوقت الذي كانت فيه القوى المعادية تسيطر عليها، وفوق ذلك فقد وجد في جزيرتهم على نهر التيبر حيث بنوا كنيساً لهم، موقع جسر يؤدي إلى الأملاك البابوية (وقد دعي هذا الجسر، جسر اليهود، لأنه كان يصل الضفة اليسرى من نهر التيبر بالحي اليهودي، ودعي الشارع الممتد منه إلى الحي اليهودي باسم شارع اليهود، وكان موقع هذه الجزيرة إستراتيجياً، وكذلك جسرها، وقد شيدت عائلة بيرليوني عدداً من الأبراج الحصينة في جواره لحماية نفسها، هذا وقد اشترت مسرح مارسيلوس الحصين، على الضفة اليسرى، مقابل الجسر بقصد جعله قلعة محصنة، وقد ظل هذا المسرح لمدة طويلة يدعى قلعة بيرليوني) أما الآن فأصبح مأوى لعدد من العائلات الفقيرة في الحجر الكبيرة، الفاخرة نفسها التي كانت في الماضي مسكناً لهذه الأسرة، ولقد شاهد غريغوريوس وهو واحد من مؤرخي روما في العصور الوسطى،

تلك الأبراج في أواسط القرن التاسع عشر، ووصفها بأسلوبه اللاسامي المعتدل الظريف، فقال: «إن أبراج بيرليوني عبارة عن حجر ومساكن حيث يخزن اليهود الثياب المستعملة، وفي الطابق الأرضي هنالك المسلخ المستعمل لذبح القرابين الحيوانية لأغراض طقوسية، وهكذا فقد تدهور ذلك المكان الذي عاش به أفراد عائلة بيرليوني الأمجاد من شيوخ في مجلس الشيوخ وقناصل عظماء.

انحط مقام ذلك المكان وعاد إلى أصوله اليهودية القذرة، ففي هذا المكان نفسه حيث مات البابا أوربان الثاني المحرك الأول للحروب الصليبية، وحيث قدم آل بيرليوني بابا جديداً من لدنهم، نرى اليهود في هذه الأيام يبيعون الملابس المستعملة كما كان يفعل أجداد البابا أناكلت الثاني».

وبعد أن برمجت وأعدت عائلة بيرليوني تلك الخطة العسكرية المحكمة، التي تدل على بعد النظر، عمدت هذه العائلة إلى شراء وتحصين تلك المنطقة، الواقعة على الضفة اليسرى للنهر والتي تؤدي إلى المدينة البابوية، والآن بدأوا يحشدون رجال المليشيات فيها، وكانوا يزودونهم في أوقات الحاجة بجنود من المرتزقة، الذين كانوا مستعدين لخدمة أية جهة تستطيع أن تدفع أكثر، ولاشك أن عائلة بيرليوني كانت تستطيع أن تدفع بسخاء، لأنها كانت من العائلات المالية الثرية.

لقد كان رجال المال هؤلاء مخولين ولديهم صلاحية ضرب النقود في القرون الوسطى، وكانوا بهذا التقدير يتمتعون بمركز ليس له نظير في هذه الأيام، فلم يكونوا مجرد مهنيين محترفين، ولكنهم كانوا يؤلفون طائفة ذات مرتبة عالية لها أهمية تفوق أهمية مرتبة النبلاء، وفي الوقت الذي لم يكن فيه ضرب النقود مقصوراً على الأباطرة فحسب، بل كان يشاركهم فيه الدوقات والبارونات، لا بل حتى الأساقفة الذين كان كل منهم يضرب نقوده الخاصة به، وعندما كانت قيمة المعادن الثمينة تختلف بين مدينة وأخرى، وبين دولة وثانية، وعندما لم يكن هناك أية تنظيمات وطنية، أو عالمية لسوق النقود، كان ضاربو النقود يتمتعون بأهمية خاصة، وكثيراً ما كانوا يشرفون على عمليات التعدين في مناجم الذهب والفضة

فضلاً عن ضرب النقود، وعندما كان أي ملك يستلم زمام السلطة في بلد من البلدان كان يجد نفسه بحاجة إلى ضارب نقود يشرف على هذا العمل بقدر حاجته إلى مشرف على الغابات أو المزارع الملكية، وكان اختيار ضارب نقود يتم بعناية فائقة، وكانوا يوثقون العقود مع أولئك الأشخاص، إلا في حالات خاصة كأن يكون الرجل غنياً جداً وموثوقاً به بحيث تصبح سمعته، وأخلاقه ضمانة كافية، ولما كان اليهود هم المشتغلون بالذهب والجواهر منذ مئات السنين، تلك المهنة التي كانت تتطلب ثقة المشتري بالبائع، لذا نجد كثيراً من الدوقات والملوك، يلجأون إلى التعامل مع عائلات يهودية خاصة بهم جيلاً بعد جيل، وهكذا أصبح من الطبيعي أن يشتهر كثير من اليهود كممولين وضاربي نقود.

ففي القرن السادس الميلاد، عرف عن اليهودي برسكوس أنه كان ضارب النقود لتشالون Chalon، وكان اليهودي جدعون ضارب نقود في ميلانو في القرن العاشر، وكان هنالك ثلاثة ضاربي نقود يهود في ونشستر Winchester عام 1181م، وفي لندن لا يزالون يذكرون اسم داود، وفي يورك اسم (اسحق)، وفي كانتربري (وجد فيها مجمع يهودي لا بأس به في القرن الثاني عشر) كان هنالك اسم سيمون وسلمان، وكان أوتو أسقف ويرزبرغ في بافاريا في بداية القرن الثالث يثق بالممول اليهودي ييشيل Yechiel، أما ليوبولد الخامس ملك النمسا فكان اليهودي شلوم يقوم بخدمته، وكان هنالك ضاربو نقود حتى في بولندا، وكان العصر الذهبي لضاربي النقود اليهود في القرنين السابع عشر والثامن عشر، وقد عمد الملك فريدريك الأكبر ملك بروسيا، إلى التعامل مع فيتيل هاين أفرايم اليهودي، على الرغم من أن هذا الملك كان ضد السامية وضد اليهود، وإلا أنه عهد إلى هاين هذا بالإشراف على تنظيم جميع بيوت ضرب النقود في بروسيا وسكسونيا، وقد كان قصر أفرايم الشهير، الذي دمر أثناء حصار برلين في الحرب العالمية الثانية، يعد أثراً من الآثار الهندسية المعمارية، عندما تقلد هتلر السلطة، هذا وإن الارتفاع وسمو الدرجة التي وصل إليها جوزف سويس أوبن هيمر، أقوى ضاربي النقود، ثم سقوطه وانتهاء حياته على المشنقة لتؤلف حقاً قصة من القصص المثيرة!.

ويجب أن نشير إلى أننا قد انتقينا أسماء ضاربي النقود هؤلاء وأتينا على ذكرها، وذلك بسبب ارتباط أسمائهم هذه بروايتنا الراهنة، ومع هذا فإن أكثرية ضاربي النقود، وأصحاب البنوك، ومقرضو الأموال كانوا مسيحيين وإن شارع لومبارد في لندن حيث اعتاد أن يجتمع الصيارفة وأصحاب البنوك للتداول، ليذكرنا باللومبارديين الإيطاليين الذين كانوا صيارفة النقود الكلاسيكيين في العصور الوسطى، ثم على الرغم من القوانين الصارمة خصوصاً في القرون المتأخرة، نرى أنه حتى الكنائس والأديرة كانت متورطة في أعمال الصيرفة، ومع ذلك فلا يمكن استثناء اليهود من هذه الأعمال، حتى في الأوقات التي كانت بها اللاسامية على أشدها، وعندما نجحت الدولة والكنيسة في التشديد على نشاطات اليهود التجارية، بل إنه على العكس ارتفعت قيمة ضاربي النقود اليهود، حتى أصبحوا في مركز رجال البلاط، وكان يحق لهم الاتصال بالحكام بحرية تفوق حرية معظم النبلاء، ومع أنهم كانوا يعيشون في (الغيتو) إلا أن أبواب القصور كانت مفتوحة دوماً في وجوههم، وعدوا من مقتنيات الحكم الثمينة جداً، إذ كانوا هم المسؤولون عن تامين وجلب التحف الفنية الرائعة إلى القصور، وغالباً ما كان هؤلاء اليهود في أيام المحن والكوارث، أبرع الناس في الدفاع عنهم وأفصحهم، وأشدهم إقناعاً، وعندما ظهر آل بيرليوني على مسرح الأحداث في تاريخ روما، كانوا يشتغلون بالصيرفة، ولكن هنالك شك فيما إذا كانوا قد جمعوا أموالهم الهائلة من الصيرفة أو اشتغلوا بالصيرفة فقط، فالصيرفي كان في ذلك الوقت كما هو في هذه الأيام، مقرضاً للنقود أيضاً، وكان هذا العمل هام ومربح، فمع أن الصيرفة كان ربحها لا يزيد عن 33. 8٪ إلا أن أعمال الأسلاف كانت تعطي مردوداً أكبر، فنسب الفوائد على القروض في القرون الوسطى اختلفت من بلد إلى بلد حسب ظروف ووضع المستقرض، ومستلم النقود، فأمير كانت تقع تحت تصرفه أملاك وموارد كثيرة ضخمة كان يدفع 33٪ سنوياً، بينما كانت دور الرهن تتقاضى ما يصل حتى 300٪، وكانت هذه الأسعار رسمية، وضعتها السلطات ولا تعد رباً فاحشاً، ولا يجوز أن يتطرق الشك إلى أذهاننا كما لاحظنا أن الثروات الخيالية لآل بيرليوني قد تجمعت في عهود وأجيال متطاولة، وليس

في وقت قصير، فباروخ الصيرفي لابد أنه كان رجلاً عبقرياً في ميدان عمله، ونعلم أن علاقاته كانت ممتازة، ولكن يبدو أنه من المستحيل أن تكون ثروة عائلة واحدة قد انحصرت كلها في رجل واحد.

وبما أنه من المعروف عن اليهود أنهم قد شغلوا أدواراً هامة في اقتصاد المجتمعات في القرون الوسطى لذلك يمكننا أن نعد أن مصدر وأصل ثروة باروخ لم تأت عن طريق الصيرفة، لكن عن شكل من أشكال التجارة، إننا نقرأ في كتاب ابن خرداذبه وهو أحد المسؤولين عن البريد في الإمبراطورية الفارسية[1] في القرن التاسع عن دور التجار اليهود المدعوين بالراذانية الذين كانوا يتولون أعمالاً تجارية ضخمة، في عالم البحر المتوسط في ذلك الزمن، وكان هؤلاء التجار يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والأفرنجية والأندلسية والصقلية، وأنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، براً وبحراً «يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان، والديباج وجلود الخز والفراء والسمور، والسيوف، ويركبون من فرنجة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما، ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم (السويس) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدة ثم يمضون إلى السند والهند والصين فيحملون من الصين المسك والعود، والكافور والدارصيني وغير ذلك مما يحمل من تلك النواحي[2]، وربما أخذوا خلف رومية، في بلاد الصقالبة ثم إلى خليج مدينة الخزر».

---

(1) كذا في الأصل، والصحيح الخلافة العباسية، وابن خرداذبه (205 ـ 280هـ/ 820 ـ 893م) هو عبيد الله بن أحمد بن خرداذبه، أبو القاسم مؤرخ، جغرافي، فارسي الأصل، من أهل بغداد، كان جده خرداذبه مجوسياً، أسلم على يد البرامكة، فاتصل عبيد الله بالمعتمد العباسي، فولاه البريد، والخبر بنواحي الجبل وجعله من ندمائه، له تصانيف أهمها «المسالك والممالك».

(2) يلاحظ أن المؤلف مزج هنا بين الأخبار ودلسها، فنسب إلى الراذانية دورهم الذي كانوا يقومون به مع دور التجار الروس، انظر المسالك والممالك لابن خرداذبه ط، ليدن 1889 ص153 ـ 155، هذا ولابد من وقفة عند ما أورده ابن خزداذبه فاسم هذه الفئة من التجار وثائقياً «الرهادره» كما يرى بعض الباحثين في تونس، وقد وجد بالقيروان سوق مخصص لهذه الفئة من التجار، كما وعثر على قبور بعضهم في مقبرة القيروان ويشير هذا إلى أنهم لم يكونوا من اليهود فقط، بل كان فيهم المسلم وربما غير المسلم، وإلى اليوم نجد في الدارجة في تونس (الرهدار) وفي المغرب «الرهطاني» هو الرجل المتلون محب المال.

وعلى الرغم من صياغتها المختصرة ، فإننا نجد هذه الوثيقة تنقل إلينا صورة معبرة عن نشاط تجار اليهود ، ومع أنه من الخطأ أن نفكر بالامتيازات اليهودية طبقاً لمصطلحات الاقتصاد في أوائل العصور الوسطى ، كذلك من الخطأ أيضاً أن نفكر باليهود في القرن الحادي عشر طبقاً لمصطلحات التعذيب والغيتو والانفصال عن العالم المسيحي ، إذ أن كل هذه الأشياء وإن ظهرت مبكرة فإنها لم تتبلور قبل الحملة الصليبية الأولى (1095) ، وإلى ذلك الحين كانت منحصرة في مناطق معينة .

وفي القرن الحادي عشر ، لم يكن هنالك تفريق بين اليهود والمسيحيين سوى في القضايا الدينية ، فقد تكلم اليهود لغة المسيحيين ، وعاشوا في أحيائهم نفسها ، وأحياناً في بيتوهم نفسها ، وقد شجعت الاختلافات التي ظهرت على إيجاد علاقات ثقافية متبادلة ، فقد علم اليهود المسيحيين اللغة العبرية ، التي كانوا يستعملونها في الطقوس الدينية ، وغالباً ما استعملوها في آدابهم ، بينما في المقابل علم المسيحيون اليهود اللغة اللاتينية ، وكان المسيحيون يدخلون الكنس اليهودية ليسمعوا صلوات الربانيين ، بينما كان اليهود يساعدون أحياناً في القداس المسيحي ، وكانت جماعات التجار اليهود وزبائنهم من المسيحيين يتشاركون مع بعضهم في احتفالاتهم العائلية .

والحقيقة أن بعض المدن في أوائل العصور الوسطى كانت تتلهف لوجود اليهود بين ظهرانيها ، والوثيقة المعبرة حول هذا المعنى هي الدعوة الشهيرة التي قدمت لليهود للإقامة في مدينة سبير على حوض الراين ، ففي أيلول عام 1084م قرر الأسقف روديجار هوزمان أن أهمية المدينة سوف تزيد إذا دعا اليهود للعيش فيها ، ولكي يوافقوا على دعوته ، عرض عليهم بعض الامتيازات ، فبالإضافة إلى الحرية التامة بالتجارة في المدينة و مينائها ، فقد سمح لهم بامتلاك الأراضي والأبنية والحدائق والكروم والمزارع ، وقد سمح لهم باقتناء العبيد (خلافاً للمرسوم البابوي) وسمح لهم باستئجار الأيدي العاملة في المزارع والمسيحيين والمسيحيات ، وقد سمح لهم أن يتقاضوا أمام قضاة من بني جلدتهم مع الحرية الذاتية في الشؤون الاجتماعية والثقافية ، وكان رئيس الكنيس اليهودي يتمتع بالدرجة

نفسها من النفوذ الذي يتمتع به السيد الإقطاعي، كما سمح لهم أن يبيعوا للمسيحيين اللحم الذي لا يجوز لليهود أكله، وفي سبيل سلامتهم وأمنهم، خصصت لهم أحياء معينة في المدينة لها أسوار، بغية حماية اليهود من الغوغاء، ولقاء هذه الامتيازات كانوا يدفعون ضريبة سنوية مقدارها ثلاثة أرطال ونصف الرطل من الذهب، وقد أيد هذا القرار الإمبراطور هنري الرابع.

ومنذ فتح العرب المسلمين لإسبانيا عام 711م تجمعت أكثرية اليهود في تلك البلاد، وقد عاشوا سعداء، وفي رخاء من العيش، وفي أعداد كبيرة، وكانت بعض المدن الإسبانية تحتوي على أكثرية يهودية، وكانت غرناطة تعرف باسم مدينة اليهود، وكان سكان اليسانا كلهم تقريباً من اليهود، وأما طركونه فكانت تسمى مدينة اليهود، وكان يعيش في برشلونة أكثر من ألف عائلة يهودية، ومع أننا لا نملك إحصائيات دقيقة بالنسبة لعدد اليهود في: فرنسا، وإنكلترا، وإيطاليا، إلا أن المؤرخ سالو بارون Salo Baron، يذكر أنه عاش حوالي عشرون ألف يهودي في إنكلترا، عاش أكثرهم في مدينة يورك ولنكولن، وبرستول، وكمبردج، واكسفورد، وطبعاً لندن، وأما في إيطاليا فكانت الجماعة اليهودية أقل عدداً، ولكن الإحصاءات العددية، والأرقام تعطينا فكرة عن نفوذ اليهود التجاري والاجتماعي والثقافي، ولم تكن الأحياء اليهودية في أوائل العصور الوسطى دائماً حسبما شهدت فيما بعد من القذارة والرطوبة، وذلك عندما أحيط اليهود بالأسوار، وحصروا في منطقة معينة، بغض النظر عن التزايد السكاني، ولم يسمح لهم بالخروج بعد حلول الظلام، وغالباً ما كانوا يتمركزون وسط المدينة قرب القاعة العامة أو القلعة، وقرب الطرق التجارية الرومانية القديمة، وكانوا دائماً معرضين للحسد أكثر من الكراهية، ويصف وليم، وهو كاهن نيوبره في إنكلترا المجتمع اليهودي في مدينة يورك بقوله: «لقد بنى اليهود بيوتهم في منتصف المدينة، وأسرفوا في تزيينها وزخرفتها، وكانت ذات أحجام كبيرة لا يضاهيها إلا قصور النبلاء، لذلك بدأ كثير من الناس يتآمرون عليهم خصوصاً من الطبقات الفقيرة التي لم يرضها أن يتمتع هؤلاء اليهود بالغنى والثروة، بينما هم أنفسهم في حالة فقر وعوز».

وشمل نشاط اليهود في ذلك الزمن كل وجه من أوجه الاقتصاد، ففي سكسونيا كانوا يملكون الملاحات (أمكنة استخراج الملح) وزرعوا الكروم في فرنسا، وباعوا النبيذ، وكانوا يتمتعون بالاحترام الزائد، حتى أن بعضهم كان يحظى بالرعاية والحماية في أسواق الراين، وأسواق فرنسا، ولم تكن بعض الأسواق تعقد في أيام السبت، وذلك احتراماً لليهود وسبتهم، وكان منهم الحاكة، والدباغون في صقلية، وصائدو اللؤلؤ والتجارة في إيران، ونافخو الزجاج، وكانت آنيتهم الزجاجية مرغوبة وتعرف باسم الزجاج اليهودي، كذلك صناعة المنسوجات والصباغ في مدينة برنديزي، ومصر وسورية، وتجار الحرير بين الصين وبلاد الغرب، وكان هنالك صانعو الورق في بلنسية والمدن الأندلسية الأخرى، وكان منهم تجار لتوريد البضائع وللتصدير، تمتعوا بسمعة لا بأس بها، وكان التجار اليهود يحملون العطور والحرير والجواهر والمنسوجات النادرة من البلاد البعيدة، ويجلبونها إلى قلاع وقصور الأباطرة والبابوات، والأساقفة والنبلاء، وكانت أرباحهم طائلة ولكنها لا تقاس بالأخطار التي كانوا يتعرضون لها على يد القراصنة في البحار، وقطاع الطرق في البر، وقد قيل مثلاً إنه بإمكانك أن تثق بالتاجر اليهودي لنقل سبيكة من الذهب، من القسطنطينية إلى السويد، وذلك أن بيوت التجار اليهود المحصنة كانت مبنية على محاذاة الطرق التجارية، والحقيقة إننا لا يمكن أن نجزم أن اليهود كانوا التجار الوحيدين في المنطقة دون أي منافس، ولكن لا ينكر أن شهرتهم ونجاحهم كتجار دوليين سببها أن اليهود عاشوا في جميع الأقطار، من إسبانيا غرباً حتى الهند والصين شرقاً (حيث لا تزال هنالك جماعات يهودية حتى الآن).

ووصلوا حتى كوريا أيضاً، وقام هذا التفاهم على الشريعة اليهودية وعلى قاعدة رباط الإخوة، وكانت لغة التفاهم بين هذه الجماعات هي اللغة العبرية، ولم يكن هؤلاء التجار اليهود مجرّد تجار يبغون الربح والفائدة، بل كانوا يقرؤون الكتب ويحملونها، وكانوا في الحقيقة يمثلون الحضارة التي تعدّ الثقافة والعلم من متطلبات التقوى والدين الأساسية، ففي المدن وبخاصة المدن الجامعية، خدم جماعة اليهود في أعمال الترجمة والنقل، وكان اليهودي اسحق هو الذي اشتغل مترجماً لسفير شارلمان في مهمته الشهيرة

لدى الخليفة (الفارسي)[1] هارون الرشيد، وقد هيأت إسبانيا المسلمة، مكة الثقافة في العصور الوسطى، الأجواء لبعث الحضارتين اليونانية واللاتينية، وقد ساهم اليهود الأسبان في نقل الآداب الكلاسيكية إلى الغرب، ولا نستطيع أن نتجاهل قيمة هذه المعلومات والمعارف بالنسبة لتقدم الطب والرياضيات والعلوم في العصور الوسطى، ففي القرن الثاني عشر، الذي غالباً ما يدعى أوائل عصر النهضة، قام اليهود بتأدية دور هام في جامعات باريس واكسفورد، ولا شك أن هذه التحركات في العالم التجاري، والحياة الثقافية في المدن قد حالت دون نشوء أية حواجز اجتماعية ذات شأن بين اليهود والمسيحيين، لا بل حتى فيما بعد في العصور الوسطى، لم تكن هنالك أي اختلافات ذات بال، وذلك لأن اسمك أسوار أي غينو، لم تكن ذات قوة كافية لإعاقة أو منع إقامة العلاقات الثقافية في ذلك الزمن.

ومن الجانب اللغوي نجد أن اللغة اليهودية الألمانية (التي لا تزال موجودة في اللغة اليديةYidish[2]) ليست بعيدة جداً عن اللغة الألمانية في العصور الوسطى، وكذلك اللادينو لغة اليهود الإسبان ما هي إلا اللغة الإسبانية القشتالية، وقد استعمل راشي Rashi الشارح اليهودي للتوراة في العصور الوسطى [بالمناسبة كان يمتلك كروماً كبيرة في فرنسا]. اللغة الفرنسية في العصور الوسطى لتوضيح بعض النقاط في شروحه العبرية، وأما في فن العمارة، فقد كانت أبنية الأحياء اليهودية تشاد طبقاً لأساليب العصر المعمارية، فكنس طليطلة، وبراغ، وورمس هي أمثلة رائعة لأساليب الفن الإسباني والرومانسي والقوطي، بالتوالي، وكان هنالك واحد من شعراء التروبادور على الأقل في ألمانية وهو منشنجير

---

(1) كذا في الأصل، والصحيح «العباسي» ثم أين هذه الشهرة؟ حيث لم يشر واحد من المصادر العربية إلى وصول رسل شارلمان إلى بغداد، أو إرسال الرشيد أو غيره من الخلفاء العباسيين أية رسل أو سوى ذلك إلى بلاط (اكس لا شبيل) «آخن»، والإشارات التي وردت في الكتب اللاتينية مثل كتاب حياة شارلمان لإنهارد، أوردت في معرض التفاخر، وهي موجزة جداً وليس لها مكانة وثائقية.

(2) Yedish : اليدية : لهجة من لهجات اللغة الألمانية تكثر فيها الكلمات العبرية والسلافية، وينطق بها اليهود في الاتحاد السوفييتي المنهار، وبلدان أوروبة الوسطى، وهي تكتب بحروف عبرية.

سوسكند فون ترمبرغ، ولربما كان هناك غيره، وعلى العموم، كان الاتصال بين المسيحيين واليهود شخصياً وسريعاً، وغالباً ما كان حميماً.

وإن موقف الكنيسة الأخيرة في القرن الثالث عشر الميلادي الذي أوجب الحظر الصارم على اليهود، وإجبارهم على السكن في الغيتو، وارتداء ملابس مميزة خاصة، ما هو إلاَّ دليل وشاهد على وجود اختلاط واتصال متبادل بين المسيحيين واليهود، وكانت العلاقات الجنسية شائعة لدرجة أن علماء اليهود في القرن الخامس عشر، فسروا سبب طرد اليهود من إسبانيا عام (1492م) بقولهم: «إن اليهود الإسبان أخذوا النساء من الأمم إلى بيوتهم وتسببوا في حملهنّ، وهكذا أصبح أطفالهم من أمم، ثم أصبحوا فيما بعد قتلة مجرمين اشتركوا في قتل آبائهم»، وهذا التفسير بسيط جداً، ولكن مشكلة وجود علاقات من هذا النوع بين اليهود وغير اليهود، لا شك واردة وتؤيدها التحذيرات الصادرة عن كل من اليهود والمسيحيين لأتباعهم كل على حدة.

وإذا عددنا الدور الاقتصادي والاجتماعي لليهود، نجد أنه لأمر مدهش ألا نلاحظ أي تحول اختياري بالجملة للديانة المسيحية، فمعظم التحول كان نتيجة الإجبار والإكراه، لا بل حتى في هذه الحالة يُشك في جدوى وفعالية هذا الإجبار، فنحن نجد أن أولئك المتحولين إلى المسيحية، كانوا يستمرون في مراعاة واتباع عقائدهم وأساليبهم اليهودية في العبادة، سراً على الرغم من تظاهرهم بالتمسك بالديانة الجديدة (المسيحية).

وقد أصبح هذا النوع الباطني المرائي من اليهودية مشكلة كبرى بالنسبة للمسيحية بعد طرد اليهود من إسبانيا، فالمارانو Maranos، في إسبانيا وهم يهود تحولوا إلى المسيحية، يحتفظون بيهوديتهم حتى يومنا هذا، ويعيش أبناء هؤلاء المتحولين في مجتمعهم الخاص في جزيرة ميورقة من جزر (البليار) ويبدون كما لو أنهم طردوا من إسبانيا البارحة، فزواج فتاة من الشاولا Chuela أي من بنات هؤلاء المتحولين الأثرياء من يهود القرن الخامس عشر، كان يعد تحالفاً مشبوهاً، والمارانو في البرتغال لا يزالون يستعملون الصلوات اليهودية في عبادتهم، والسيدات الكاثوليكيات الثريات في البرازيل والأرجنتين ما زلن يتذكرن أجدادهن اليهود في إسبانيا فيشعلن الشموع مساء السبت،

وتعد السلطات الكاثوليكية الرسمية تحول اليهود إلى المسيحية أمراً يدعو للشك، وفي كاتدرائية (ريمس) هنالك صورة مجسمة لخنزيرة، تدعى الخنزيرة اليهودية [وقد أصبحت نموذجاً يحتذى به انتشر في العصور الوسطى، ويشاهد في كثير من الكنائس الألمانية والسويسرية] وتحت هذا الرسم هنالك شرح تفسيري يقول: «كما أن الفأر لا يمكن أن يأكل السنور، كذلك لا يمكن لأي يهودي أن يصبح مسيحياً حقاً».

وهذه الفكرة تلخص الرأي الشائع الذي أورده، ووثقه بطرس براو وهو أحد الرجال اليسوعيين الألمان، في كتاب نشره تحت إشراف الفاتيكان يقول فيه: «إنه لن تحدث سوى تحولات قليلة في أوائل العصور الوسطى، وخصوصاً التحولات المؤسسة على الاعتقادات العميقة، إذ أن هذه كانت نادرة»، ثم يستطرد فيقول: «كان اليهود عادة يتحولون عندما تبرز أمامهم فوائد ووعود مادية، أو عند شعورهم بالتهديد، وليس هنالك أي دليل مقبول على إخلاصهم حتى «ولو أحرزوا مناصب اكليروسية رفيعة» فهنالك «إسحق المتحول» الذي خدم مستشاراً للبابا أورسينوس، وكتب عدة مؤلفات، ثم عاد ورجع إلى الديانة اليهودية مرة ثانية، وخلال مذبحة حدثت في (ورمس) وطبقاً لما ذكره الراهب بيرنولد أوف سانت بلاسيان فقد وعد الأسقف فيها بإيواء اليهود وحمايتهم إذا تحولوا إلى المسيحية، عند ذلك طلبوا أن يعطيهم الأسقف وقتاً ليبحثوا هذه القضية لوحدهم، وعندما رجع الأسقف، وجد أنهم قد انتحروا جميعهم «بعدما ساقهم إلى هذا العمل عنادهم ووسوسة الشيطان»، هذا وقد عُمّد يهود متز عام 1096م أثناء الحملة الصليبية الأولى، ولكن عندما زال التهديد بالخطر رجع جميع اليهود إلى ديانة إسرائيل، وفيما بين عامي 1125 و1152م لم يحدث سوى حادثتين من التحول في كولون، وعندما خُيّر يهود إنكلترا عام 1290م بين التحول أو الطرد من البلاد، لم يتحول أي واحد منهم، وكان عددهم عشرين ألفاً، وفي النمسا تحول بعض اليهود عام 1349م ولكن لم يبق أي واحد منهم مسيحياً، وفي مدينة طليطلة حيث تحولت مئات من الأسر اليهودية أثناء الاحتفال بعيد شفيع الكنيسة فيها، بعد حمامات الدم التي حدثت في إشبيلية عام 1391م، قام بعد هذا الراهب الفرنسيسكاني الإسباني ألفونسو لوبيز، بالبحث

والاستقصاء عن مواقف هؤلاء اليهود وعاداتهم فيما بعد، فوجد أنهم لا يزالون يقومون بختان أطفالهم، ويتقيدون بالسبت ويشتغلون يوم الأحد، ونبذوا دين ومذهب القديسة (مريم)، وسموها الخاطئة، وعندما كانوا يؤشرون بعلامة الصليب على صدورهم استعملوا نصف العلامة فقط، وحافظوا على العادات اليهودية بخصوص دفن الموتى، وثقفوا أولادهم حسب تعاليم الدين اليهودي، وفي أوقات الشدة كان واحدهم يهتف «يا أدوناي ساعدني» ومن الإنصاف أن نلاحظ أن كل بابا منذ أيام غريغوري الأول (590 - 604) كان يصدر تحذيرات شديدة اللهجة ضد استعمال القوة، للتحول إلى الديانة المسيحية، ولكن هذه التحذيرات لم تكن ذات جدوى، إذ أنه كثيراً ما استعملت القوة، وأصبح عدد المتحولين بسبب الضغط والتهديد كبيراً، وقد كانت التحولات في إسبانيا، بعد حوالي مئة عام، حتى أننا نجد أن الذين عاشوا في إسبانيا عند إصدار مرسوم الطرد لا يتجاوزون الـ/ 000 . 250/ نسمة، وقد كانت مشكلة النيوفيتي Neo fiti (المؤمنين الجدد) في جنوب إيطاليا تقابل مشكلة المسيحيين الجدد في إسبانيا، وعندما حدث أن قُدم لكل متحول يهودي مكافأة مالية من ذهب في مدينة تراني Trani عام 1297م، تحول حوالي 310 من اليهود حالاً، ولا أحد يعلم كم كانت تدوم فوائد هذا التحول بالنسبة للمعتقدات المسيحية الحقيقية.

ويدعي سالو بارون في بحثه عن العوامل اليهودية والمؤثرات اليهودية في حضارة العصور الوسطى، أن القيم اليهودية والأفكار اليهودية قد تقلبت خلال هذه التحولات، حتى أن بعض المسيحيين المتحمسين عبروا عن سخطهم لتدفق هذه الأيديولوجيات الأجنبية، وغزوها، ولكن من الصعب تحقيق هذه الأمور، وتبقى الحقيقة الناصعة وهي أن التحولات بالجملة حدثت فقط عندما كانت القضية تصبح قضية حياة أو موت، أو عندما كان يحدث تهديد بالطرد، أو عندما يصبح التحول أمراً محتوماً لا مناص منه، وبالتأكيد إن الإجراءات الوحشية التي قام بها القياصرة في روسيا في القرن التاسع عشر (مرسوم الاستيطان) والمذابح الدموية، لم تكن نتيجتها أي تحول جماعي، وإن مدة الاستيعاب التي تلت الثورة الفرنسية، لم ينتج عنها إلاَّ إضافة عدد ضئيل من المتحولين، وإذا سألنا: لماذا

ثبت أن القوة نجحت إلى حد كبير في هذا المضمار في إسبانيا في عصر القوط الغربيين، وبعد إعادة السيطرة المسيحية؟ نجد أن الجواب على هذا السؤال هو من المسائل التي لم تحل في التاريخ اليهودي، بعد هذا يمكننا أن نستطرد فنقول: إن تحول آل بيرليوني إلى المسيحية كان من الأحداث النادرة في روما في القرن الحادي عشر، ولم يصل إلينا أن أية أسرة أخرى بارزة لا في روما ولا في أي مكان آخر قد تحولت بشكل جماعي مثل هذه الأسرة، ولم يحدث في جميع العصور التاريخية، أن كان لتحول أسرة بأجمعها مثل هذه الأسرة النتائج البعيدة المدى التي تلت تحولها، وإذا أخذنا بعين التقدير الولاء والإخلاص التام الذي أظهرته هذه العائلة للكنيسة، عندها يصبح أمراً طبيعياً وسهلاً أن نفترض أن هذا التحول قد حدث عن قناعة وتبصر في الموضوع، ولهذا فإن هذا السبب يعدّ من الأسباب الجوهرية التي تجعل التغير من دين إلى دين أمراً مفهوماً ومستساغاً، ولكن لما لم يكن لدينا أي مرجع موثوق به نعتمد عليه في مثل هذه الاستنتاجات، عندها علينا أن نلجأ إلى تخمين الأسباب التي أدت إلى هذه الخطوة الهامة.

في الأسبوع الذي تقدم على عيد الفصح في عام 1030 اجتمع آل بيرليوني لتنفيذ أول خطوة، في عملية التحول المعقدة، وهي عملية طقوس التفحص وإنعام النظر، ذلك لأن الكاهن الفاحص الذي أنيطت به مهمة التحويل، كان من واجبه أن يتأكد أن المرشحين للتحول على تمام الوعي والعلم بالدين الجديد الذي سوف يعتنقونه، وبحضور عرابيهم (من المحتمل أن يكون هؤلاء من أسرة فرانيباني) أعلن كل منهم رجالاً ونساءً عن إيمانه، وبدأوا يستمعون للمواعظ المتعلقة بمذهب الكنيسة، وبعدها قبلوا رسمياً للتعميد، وبهذا اجتاز المتقدمون أول فحص، وبعد يومين من هذا القبول رؤي على باب كل كنيسة في روما، إعلان يصرح: «إن باروخ وعائلته سوف يحضرون إلى كنيسة القديسة مريم في تراستفيري حيث سيقضون على روح الشر ويهزمون الشيطان بعون أسرار العلم الخفي لروح القدس، وبهذا سوف تنفتح أبواب الجنة لهم على مصراعيها».

إن التعميد لا يزال حتى اليوم ظاهرة طقوسية، فالشيطان الذي يسكن داخل الشخص الكافر، يجب أن يطرد قبل عملية التعميد، وبما أن التعميد يعد ميلاداً جديداً،

لذلك يعطى للمتحول اسم جديد، وهذا هو ما حدث في كنيسة القديسة مريم، فعندما سئل باروخ عن اسمه أعلن بصوت رزين مهيب أنه إذا قبل في الدين القويم، فإنه يرغب أن يعرف باسم بندكتوس، وهذه ترجمة دقيقة لكلمة باروخ، أي المبارك (أصبح منذ ذلك الحين يدعى في الوثائق باسم بندكتوس كريسيانوس - أي بندكت المسيحي). وبعدها أعلن كل فرد من أفراد العائلة عن نبذه اسمه العبري، كما نبذ دينه العبري وعندها سجلت الأسماء الجديدة، وبعدها طلب من المرشحين أن يصطفوا في صفين الرجال إلى اليمين والنساء إلى اليسار، فتقدم الكاهن من كل منهم ونفخ في وجه كل منهم كما نفخ المسيح روح القدس في حواريه، ثم عمل كل واحد منهم إشارة الصليب على جبهته وكتفيه، ثم تليت صلاة القربان المقدس، ويشرح الشماس هذه العملية بقوله: «إن النفخ غايته إعلام الروح الشريرة أنها سوف تطرد على يد روح القدس، وأنها يجب أن تستعد لاستقبال ربنا يسوع المسيح، وكل شخص غير معمد يصبح جسمه مكاناً لسكن الشيطان، وهكذا يجب أن يصبح الآن مسكناً للمخلص، ولهذا يكفي الروح الشريرة نفخة واحدة دون زيادة، ما دام أنه (الشيطان) أصبح محكوماً ومداناً دينونة كبرى» وبعد انتهاء مراسم النفخ وضع الملح في أفواه المتحولين «فالملح هو الواسطة الطبيعية لإملاح طعم اللحم» ولهذا فنحن نصلح ونلطف روح معتنق الدين الجديد، بملح الحكمة المقدس، وبتعاليم الرب وكلمته، حتى يستطيع هذا المعتنق الجديد أن يكتسب المناعة والقوة التي تساعده على مقاومة تسرب الفساد إلى الروح البشرية الفانية»، ولدى اختتام هذه الصلاة، بدأ قداس «إنعام النظر» ثم تليت صلوات خاصة بالمتحولين، وبعدها أزفت اللحظة الحاسمة، فنادى الشماس «فليتقدم المتقربون إلينا»، عندها نهض باروخ وتقدم أمام جميع أفراد عائلته متجهاً نحو منصة المذبح، حيث جلس الكاهن طارد الأرواح الشريرة، وصاح الشماس: «أرجوكم أيها المختارون أن تحنوا ركبكم وتركعوا»، ولأول مرة في حياتهم ركع آل بيرليوني في كنيسة، ففي كنيسهم في الجزيرة الواقعة على نهر التيبر، كانوا يركعون في يوم الغفران، ليصلوا صلوات الاستغفار والتسبيح، باسم الرب السرمدي الخالد، «وهكذا نركع لنعبد

ونقدم آيات الشكر والامتنان لملك الملوك الرب المقدس تبارك اسمه، هو ربنا لا إله إلا هو»، هذا ما كانوا يصرحون به مع جماعة المصلين اليهود، ولكن اليوم تحول الوضع، فالكنيس أصبح شيئاً ماضياً، وأصبحت الكنيسة التي يركعون بها الآن، وهي التي كانوا يمرون بجانبها كل يوم، كنيسة القديسة مريم في تراستفيري كنيستهم، لقد حل البخور والتراتيل والأغاني الدينية المسيحية والصلوات باللغة اللاتينية محل الشازان (وهي من التراتيل العبرية القديمة) ومحل صوت الشوفار SHofar، وهكذا ركعوا وبدأوا في الصلاة، وعندها سمعوا صوت الشماس للمرة الثانية: «انهضوا وأقموا صلاتكم بانسجام، وقولوا: آمين» ونهض باروخ وأقاربه، وأتموا صلواتهم بانسجام، وقالوا: آمين، ثم رسموا إشارة الصليب على جباههم، وللمرة الثانية أمر الشيطان ألا يدخل في المستقبل في شؤون عبيد الرب الذين عزموا بنية صادقة أن يولوا ظهورهم للشيطان ولملكته ويتوجهوا نحو المخلص، مخلص هذا العالم، فليسدد الرب، رب الملائكة المقربين والأنبياء والمرسلين الشهداء، خطوات هؤلاء المتحولين، إلى نعمة التعميد»، وبعد أن استعدوا لمغادرة صحن الكنيسة قدم لهم عرابهم الخبز والخمر على المذبح، ثم قرأت أسماء العرابين، ثم أسماء المتحولين، وبعدها أنجز القداس، ثم تناول العشاء الرباني المقدس.

ولكن لم يزل أمام هؤلاء المتحولين عقبات كأداء، فالجزء الأصعب والأدق من عملية التحول لم يأت بعد، فأي شخص ضعيف العزيمة سوف يتراجع حقاً إزاء مثل هذه العقبات، ولكن آل بيرليوني صمدوا، فقرارهم لم يكن قراراً مرتجلاً فقد جلس آل بيرليوني حول موائدهم وتداولوا بين بعضهم البعض ملياً حول هذا الأمر، أفلم يكف هؤلاء اليهود أنهم قد تبؤوا مراكز النفوذ والثروة والاحترام في مدينة روما العظيمة، أو لم يكونوا يستطيعون أن يقابلوا البابا أو الأسقف أو أي موظف كبير، أو أي عضو من أعضاء مجلس الشيوخ دون خوف أو وجل، أفلا يكفيهم أنهم امتلكوا المنازل المختارة والقصور الفخمة، والقلاع الراسخة التي أضحت في حوزتهم من أجيال وأجيال، أفلم يكفهم أن وضعهم كأعضاء في الأرستقراطية المالية جعلهم يتمتعون بمراكز بارونات في الثروة والأملاك؟، الحقيقة إن كل هذا لم يكفهم، فالأملاك قد مهدت لهم السبيل للوصول إلى

المراكز العالية الرفيعة الشأن في البنية الاجتماعية، ولكن نبالة الدم لا يمكن أن تتم لهم إلا بالانخراط في الإخوة المسيحية، وهذا ما أرادته هذه الأسرة، بل كان طموحها يتعدى ذلك، فقد كان باروخ يأمل أن يتبوأ أحد أفراد أسرته في يوم من الأيام عرش القديس بطرس، لقد ركع آل بيرليوني في الكنيسة، وقاموا بأداء صلواتهم الجديدة بعد تحولهم، ولكن ظل اسم (جماعة اليهود في تراستفيري) ملتصقاً بهم لمدة ثلاثة أجيال بعد تحولهم، غير أن أملهم الذي لم يتحولوا عنه كان أن يأتي ذلك اليوم الذي سوف يستلم أحد أفرادهم منصب البابا المسؤول عن جميع كنائس العالم المسيحي.

تليت عليهم آيات الإنجيل من متى (الرجل) ومرقس (الأسد) ولوقا (الثور) وأخيراً يوحنا (النسر)، وبعد ذلك طلب من المتحولين الجدد أن يختاروا اللغة التي يرغبون أن يثبتوا إيمانهم الجديد بها، فقال باروخ، بحزم ودون تردد: «اللغة اللاتينية»، إذ أنه مادام أن لغة اليهود في روما هي اللغة اليونانية، التي كان آل بيرليوني يتحدثون بها دون شك في مجالسهم الخاصة، لذا فإن اختيارهم اللغة اللاتينية له دلالته على نيتهم الصادقة في التحول.

وفي اليوم الذي تقدم على عيد الفصح تمت آخر حلقة من حلقات هذه القصة المثيرة للتحول، فقد وقف كل متحول من آل بيرليوني أمام الكاهن الذي مسح بشكل رمزي صدورهم وظهورهم بالزيت المقدس، ولمس شفاههم العليا وعيونهم بإصبعه المبلل بالزيت، في حين كان المنشدون يرتلون صلاة بيفيا «افتح لي سبيل الجمال» وبعدها خلع القوم أحذيتهم وساروا وهم عراة الرؤوس باتجاه المذبح، حيث وجه لهم هذا السؤال: ألا ترفض الشيطان وجميع أعماله، وجميع أبهته وخيلائه؟ فأجابوا جميعاً «بلى إني أرفضه».

وفي الظروف العادية، كانت طقوس التحويل هذه تنتهي عند هذا الحد، وقد ابتدعت هذه الطقوس زمن الإمبراطور قسطنطين، عندما أصبحت المسيحية الدين الرسمي للدولة، وأصبحت تحولات الوثنيين إلى المسيحية تتم بصورة جماعية شاملة، لذا أصبحت هذه الاحتفالات بداهة أمراً مفروضاً، ذلك أنها تسبب نوعاً من الإثارة والاهتمام لدى الكنيسة الرومانية، والمجتمع المسيحي بأكمله، أما بالنسبة لهذه القضية بالذات فالأمور

تختلف، فلم يكن المتحولون من عائلة بارزة، ومن أقرباء النبلاء (الفرانيباني) فحسب، بل كانوا يهوداً، فتحول اليهود كان مناسبة نادرة في روما، ولو صدف أن حدث، فقد كان يشمل أشخاصاً مغمورين فقراء غير ذوي شأن، وقلما استدعى المطارنة والرهبان المتفقهين لسؤالهم عن الأساليب المتبعة في مثل هذه الاحتفالات ليقوموا بمثل هذه المراسم، التي كانت صورة طبق الأصل للإجراءات والمراسم التي كانت متبعة في إسبانيا زمن القوط الغربيين، حيث حدثت تحولات جماعية ليهود، تحت طائلة التهديدات من نوع بشكل لا يخطر على بال إنسان.

ففي هذه الطقوس، وهي إحدى الطقوس الكنسية القديمة نجد تعبيراً يفيض بالحياة عن العلاقات الفريدة بين الديانة المسيحية واليهودية، فاعتقاد الكنيسة حول الفداء والتخليص من الخطيئة هو رأي يحتل به اليهود مركزاً خاصاً يمكن أن نصفه بالغموض إذا أردنا أن لا نغالي فيه، إذ أن اليهود مسؤولون كشاهد حي عن حياة وموت المسيح، (لكن هذا الوضع قد تعدل على يد البابا بولس السادس في إعلانه عن العلاقات بين الكنيسة من جهة، وبين الجهات غير المسيحية من جهة أخرى ـ مؤتمر الفاتيكان الثاني سنة 1965).

هذا وإن الكنيسة لا تزال تأمل أن يعود اليهود إلى وعيهم في يوم من الأيام، ويهتدوا إلى النور الحق، ويتحولوا إلى الدين الصحيح، وهو دين الفداء، الدين المسيحي، وإن هشاشة هذه الآمال بالوجود اليهودي المستمر، واستمرار تحول اليهود إلى المسيحية جعل الأمر أكثر تعقيداً، وتعذر أيضاً وجود أي وضع من التسوية أو التوفيق، ربما لأن الأمل بالهداية أصبح بعيد التحقيق، لا بل حتى غير واقعي أبداً فلم يعد هنالك أي حاجة عملية للتسوية، ولقد رأينا أن حصيلة تلك التحولات كانت ضئيلة جداً بشكل يدعو للرثاء، وهنالك شواهد إضافية كثيرة، في أثناء حكم البابا غريغوريوس الأول لم يتحول إلى المسيحية سوى الأرامل، وفي صقلية وعد الفلاحون اليهود الذين منعوا من اقتناء العبيد أنهم إذا هم اعتنقوا الديانة المسيحية سيعفون من تطبيق القانون عليهم، وعلى الرغم من الفوائد المادية، لم يعتنق المسيحية سوى القلة من اليهود، ففي فرنسا أخبر اليهود أنه في كل سبت سوف يقوم الرهبان والمبشرون المسيحيون بالتبشير بشريعة الرب في الكنس اليهودية، ولكن

دون جدوى أو فائدة، أما في ليون فقد اضطر أجوبارد الذي أمضى معظم حياته في محاولة تحويل اليهود في المدينة إلى المسيحية، أن يتوقف ويعدل عن هذه المحاولات، وهو يهتف بيأس: «مع كل الوسائل الإنسانية، والنية الحسنة التي استعملتها بالنسبة لكم لم أنجح في هداية شخص واحد فقط منكم إلى المجتمع الروحاني المنشود»، وكان هنالك بعض الشواذ طبعاً، ففي كلير مونت مثلاً نجح رئيس الأساقفة هناك في تحويل خمسمائة شخص من السكان اليهود، وفي مساء إعلان تحويل هؤلاء ساروا يحملون المشاعل خلال المدينة بينما انسحب اليهود غير المتحولين بهدوء دون جلبة أو إزعاج إلى مارسيليا، ولكن مثل هذه الحوادث كانت نادرة الحصول وهنالك بعض الملاحظات الحدسية حول عقلية المتحولين، وقد صدف أن بقيت هذه الملاحظات بشكل وثائق غريبة.

لقد كانت هنالك صلوات وأدعية خاصة لليهود، كانت الصلوات كلها أمل بمجيء ذلك اليوم الذي سيتوحد الكنيس اليهودي فيه مع الكنيسة المسيحية، تماماً كما عانق عيسو أخاه إسرائيل، وكما رجع بنو إسرائيل من السبي البابلي، فالتحول هو الخلاص والفداء بالوقت نفسه لأن الكنيسة تقول: «مع أن اليهود يستحقون الموت إلا أن الرب حفظهم لغرض واحد، وهو تحولهم إلى المسيحية آخر المطاف».

كان القديس أوغسطين يصلي ويقول: «إنه يتمنى لو رأى اليهود نور الحقيقة حتى يقبلوا سر التجسد» أي اتحاد اللاهوت بالناسوت، وبالطبع هنالك الصلاة الشهيرة التي كانت تقام في يوم الجمعة العظيمة لأجل اليهود «الغادرين الخونة»، ولكن البابا يوحنا الثالث والعشرون أمر بحذف كلمة (الغادرين الخونة) من تلك الصلاة وذلك ليس لأنها تعد كلمة لا سامية فحسب، بل لأن صغار الكهنة والرعاع قد فسروها بهذا التفسير، حتى كانت هذه الصلاة تعد في الماضي تمهيداً واستهلالاً لبعض أعمال الشغب الدموية في الحي اليهودي في العصور الوسطى، ولمذابح في روسيا القيصرية، وتبدأ تلك الصلاة بهذا الشكل: «أيها الرب العزيز القدير الخالد الذي وسعت رحمته حتى الكفرة والملحدين من اليهود، اسمع صلواتنا لصالح ذلك الشعب الأعمى، واجعلهم يهتدون إلى نور الحق الذي هو المسيح، دعونا نصل لمصلحة أولئك الناس من غير المؤمنين (من الغادرين الخونة)

اليهود، وندعو لسيدنا، ومخلصنا يسوع أن يرفع الحجاب عن قلوبهم، حتى يعترفوا بربنا ومخلصنا يسوع المسيح».

حقاً إن اليهود «كانوا أبناء عم سيدنا ومخلصنا يسوع المسيح،» وذلك حسب ما عبر مارتن بهذا الصدد، فقد كانوا من لحم المسيح ودمه، أفلم يجر الختان للمسيح في اليوم الثامن من ولادته، أفلم يتكلم المسيح عن التوراة وشريعة داود؟ تلك الشريعة التي احترمها وتعايش معها، كل هذا صحيح وحقيقي، ولكن المسيح لم يكن مجرد رجل يهودي، بل قد رفع اسمه وقدره، وذلك حسب فلسفة القديس بولس، والإيمان المسيحي، ليصبح ابن الرب الوحيد، وبحيث يجب تقديسه بشكل مواز لتقديس الرب، ولقد صلب بعلم ومساعدة وموافقة اليهود، وهم اليهود أنفسهم الذين يعيشون في روما، لا بل حتى في تراستفيري، كما أن آل بيرليوني هم يهود أيضاً، وقد رفضوا الإيمان بالمسيح من قبل وتحالفوا مع الشيطان، في اتفاق خبيث، وقد رفضوا التبعية أو الإجلال، أو الخضوع للمسيح، وانتظروا بكل عناد مجيء المسيح المنتظر، وقد عميت أبصارهم، فلم يروا أن هذا هو المسيح المنتظر وهاهو المسيح المنتظر قد حضر بجلاله وفخامته، المسيح المدهون بالزيت، المسيح الحقيقي، هاهو قد قدم ولكن ظهر أخيراً أن هذه العائلة قد تبينت أخيراً طريق الحق والنور، إنما هل كان رجالها مخلصين في أقوالهم هذه حقيقة يا ترى من يدري ربما هم يقبلون المسيح في أفواههم ويرفضونه في قلوبهم؟ وبذلك يستمرون سراً بالاعتقاد بإلههم اليهودي البغيض، ذلك الإله الذي ليس له ولد، لأن جميع أطفال الناس هم أولاده.

أفليس من المحتمل أن يظلوا محافظين على عاداتهم وتقاليدهم سراً، تلك التقاليد التي ابتدعها الشيطان نفسه في إجراء الختان لأطفالهم ومراعاة السبت.

لذلك ومن قبيل الاحتياط ضد هذه الاحتمالات عمدت الكنيسة لإقامة بعض الطقوس الخاصة لحفلة التحويل خصوصاً عند تحويل اليهود، وهكذا طلب من آل بيرليوني أن يخضعوا لهذه المحنة المؤلمة التي لا تطلب إلا من اليهود، وبدأ الكاهن بقراءة القسم

المهيب، وكان يتوقف بعد تلاوة كل بضعة كلمات حتى يستطيع أفراد العائلة تكرار الكلمات بانسجام:

«أقسم قسماً مغلظاً أنني اعتقد بأن الضحايا المسجلة في العهد القديم، ما هي إلا بشائر للتضحية المقدسة الكبرى للمسيح، كما عاناها على الصليب.

أقسم أن قضية خلاص الإنسان من خلال المسيح، قد أعلن عنها الرب في وعوده لإبراهيم والرسل الآخرين، وأن هذا الأمر لم يعره الإسرائيليون أي اهتمام، بل على العكس صلبوا المخلص المنتظر وهو المسيح نفسه.

أقسم أني إن انحزت أو تزحزحت عن هذا الإيمان الحقيقي، وهو إيمان الكنيسة الكاثوليكية، بأني أستحق الموت.

أقسم أني عن طيبة خاطر، وبشكل طوعي ومن كل قلبي وروحي، وقدرتي أقبل شريعة المسيح، وأرفض كل شريعة عداها وإنه طبقاً لديني القديم الذي وضع في العهد القديم يلزم شاهدان أو ثلاثة لإقرار الحق، وإزهاق الباطل، ولكن حقيقة المسيح قد أثبتها اثنا عشر شاهداً، وهم حواريو المسيح الإثنا عشر.

أقسم أنه مع أن شعبي وأنا قد رفضنا المسيح من قبل إلا أننا الآن قد قبلناه في مجده وعلاه.

أقسم أنني أعتقد الآن أن مجيء المسيح قد ثبت بشهادة التوراة والأنبياء.

أقسم أنني أرفض شرائع ومبادئ اليهود، وسوف لن أرفض تناول الأطعمة التي حرمتها الشريعة اليهودية، ما لم يكن تجنبها أمراً طبيعياً غير صادر عن الخرافات والأساطير القديمة.

أقسم أنني من الآن فصاعداً، سوف أمتنع عن الاتصال باليهود الذين لم يتحولوا بعد.

اقسم بأن أسلم إلى السلطات اللاهوتية المسيحية جميع الكتب التي بحوزتي بما فيها الأبوكريفا (المحذوف من التوراة) حتى أتجنب الوقوع في أي اشتباه أو شك في إخلاصي وولائي للدين الجديد.

أقسم أنني سوف لا أقترب من الكنيس اليهودي، وبالتأكيد ألا أدخل أي بيت يهودي للعبادة، بل أوجه خطواتي نحو طريق آخر حتى لا أمر ببيت العبادة ذاك.

أقسم أن كل ما قلته في هذا القسم صحيح بالنسبة لنفسي وبالنسبة لأفراد عائلتي».

كانت لهجة هذا القسم قاسية، وكل إنسان يعرف أن أي انتهاك للقسم يقتضي العقاب الصارم، فإذا عاد المتحول واشترك في عيد الفصح اليهودي، كان يعاقب بالجلد - مئة جلدة بالسوط - مع مصادرة أملاكه وربما نفي، أما الختان، وهو من الانتهاكات كثيرة الوقوع، كان عقابه خصي والد الطفل المختون، وفي إسبانيا القديمة كانت أنوف الآباء تجدع، وأثناء حكم القوط الغربيين في إسبانيا عاش المتحولون اليهود في مدة اختبار، وعهد بهم إلى أحد الأساقفة فإذا سافروا فعليهم أن يخطروا الأسقف في تلك المدينة، تماماً كما كان يفعل السجين المحجوز بإخطار موظف المحكمة، وفي أيام السبت وأيام الأعياد اليهودية كان عليهم أيضاً أن يظهروا أمام الأسقف وذلك لكيلا يكون بإمكانهم - لا سمح الله - الرجوع إلى ممارسة سالف عاداتهم وتقاليدهم القديمة، كما أنه لم يسمح لهم بمغادرة المدينة، أما النساء اليهوديات اللائي تحولن إلى المسيحية، فكان يعهد بهن إلى نساء مسيحيات تقيات، لاشك أنهن كن أشد صرامة من الأساقفة، ربما لأنهن عرفن أن هنالك عقوبة مالية يدفعها الشخص المسيحي العلماني، إذا تلكأ أو أهمل مراقبة اليهود المتحولين، هذا وكان المتحولون يبقون ثلاثة أجيال تحت المراقبة الرسمية، وبعدها فقط كانوا يدعون المتحولين المخلصين، ويمكننا فهم أسباب هذه الصرامة في نظم المراقبة في إسبانيا، إذا علمنا أن التحول إلى الديانة المسيحية زمن القوط الغربيين نادراً ما كان تحولاً اختيارياً، ولكننا الآن لسنا في إسبانيا بل في روما، هذا التحول الذي نحن بصدده لم يكن تحولاً إجبارياً، بل تحولاً اختيارياً قامت به أسرة يهودية محترمة بمحض إرادتها، ففي روما كان الجميع يذكرون تماماً ويتقيدونّ بدقة بالمرسوم البابوي الذي أصدره غريغوري الأول العظيم بمنع استعمال أي تهديد أو إكراه، وكان على كنيسة روما أن تكون دقيقة جداً في التقيد بالقوانين والمراسيم، ولكن هنا التدقيق يقضي بألا يعامل آل بيرليوني معاملة خاصة على الرغم من سمعتهم الطيبة، وعلى الرغم من خدماتهم للكنيسة (الأمر الذي كان يعود عليهم بالفائدة) وعلى الرغم من علاقاتهم الحميمة بأسرة كاثوليكية محترمة، ولذا فقد طلب من أسرة بيرليوني أن تستمع إلى قراءة وثيقة تدعى البلاسيتوم Placitum، ثم بعد ذلك توقيعها، وهذا هو منطوق الوثيقة:

«إنني لن أدنس أو أهجر الدين المسيحي المقدس، الذي قد قبلته من خلال ماء التعميد، وسوف لن أخالفه لا بالأقوال ولا بالأفعال، ولن أسبب أية إهانة أو إساءة علنية أو سرية، ولن أزوغ عن التعميد الحقيقي، لا بالهرب ولا بالاختباء، ولن أفكر في حياتي بالرجوع إلى الأخطاء الماضية، وسوف لن أحاول أن أتملص من الالتزامات التي أتعهد بإنجازها بإخلاص، وأثبتها بتوقيعي الخاص في أسفل هذا التصريح «Placitum» وسوف لن أحاول إخفاء أي شخص يتورط في عمل المحرمات الممنوعة وفي العادات والتقاليد اليهودية الشيطانية، وأعد أن أسلم هذا الشخص إلى السلطات الكنسية، وأن أعلم وأخطر هذه السلطات عن أية إشاعة تشير إلى مكان اختباء هذا الشخص، وإني على تمام العلم أن أي خرق أو تدنيس لهذه الالتزامات التي تعهدت بها أستحق عليه عقوبة الموت، وسوف لن أحتفل بعيد الفصح اليهودي، ولا أي عيد يهودي آخر، ولن أتزوج أية امرأة يهودية غير معمدة، ولن أمتنع عن تناول أي طعام، أو ألتزم بأي نوع من المآكل عدا المآكل والأطعمة المسيحية».

ووقعت الأسرة هذا التصريح، وكان أول الموقعين باروخ وتلاه صف طويل من أسماء أفراد هذه الأسرة، أسرة بيرليوني العظيمة، أولئك اليهود من تراستفيري، وقد أعلموا الكاهن أن أبناءهم وصغارهم ملزمون بتواقيع الآباء هذه.

وأخيراً غادرت هذه الأسرة الكنيسة القديمة، وقد تحولت جميعها إلى المسيحية وأصبحت مقبولة لدى أرفع أسر المجتمع في روما، وحالما مرت بالبوابات القديمة، لاشك أن حوادث الماضي قد وجدت طريقها إلى ذاكرتها، وتجسدت في معان جديدة لها دلالتها في أعين أفرادها وأعين إخوانهم الماضين من اليهود الذين تجمعوا خارج الكنيسة بانتظارهم، ومن المحتمل أن يكونوا قد سمعوا كلمات التوبيخ، وشاهدوا نظرات الكراهية الظاهرة الممتزجة بالشفقة ورجاء المغفرة لهم، مع شيء من الأنفة والكبرياء، هذا ومن الممكن أن تكون كل هذه الأمور مجتمعة قد حصلت في تلك المقابلة الغريبة على بوابة تلك الكنيسة البسيطة، في ذلك اليوم المشهود قبل عيد الفصح عام 1030م، وإن كنيسة القديسة

مريم في تراستفيري لم يعد لها وجود اليوم، فقد هدمت بعد موت آخر بابا من آل بيرليوني عام 1138م، ولكن لا تزال بعض الأعمدة القديمة ترى في الكنيسة الجديدة، ترى هل وقف بندكتوس كريستيانوس الذي كان يحمل اسم باروخ اليهودي، في حالة تأمل في لحظة من تلك اللحظات، واتكأ على واحد من هذه الأعمدة وهو مثقل بالأفكار والتأملات؟ إنه لو كان فعل ذلك، ترى بماذا كان يفكر؟.

لم يدر في خلد أي إنسان آنذاك أن هذه الأسرة من المتحولين، قد قدر لها أن تقوم بذلك الدور الهام في أدق اللحظات التاريخية الحاسمة في ذلك القرن الذي شهد الصراع المرير بين البابوية والإمبراطورية الألمانية، وخلال زمن لا يتجاوز المائة عام، نجد أن هذه الأسرة التي احتقرها الناس الذين لم ينسوا أصلها اليهودي، وازدراها رجال الاكليروس الذين كانوا لا يزالون يذكرون ذلك اليهودي باروخ، واستخدموا تلك الذكرى عندما كانت تخدم أغراضهم ومآربهم، أسهمت في إخراج ثلاثة بابوات، وهم أيونوس جراتيانوس، وجون جرايتين الذي سمي فيما بعد غريغوري السادس (1045 ـ 1046) وهيلد براند الذي أصبح يدعى غريغوري السابع (1073 ـ 1085)، وبطرس بيرليوني الذي اتخذ اسم أناكلت الثاني عندما أصبح بابا (1130 ـ 1138)، وكانت حياة البابوات صاخبة وصعبة، ولكن الحقيقة أن كلاً منهم قد أسهم في نمو الكنيسة، وتطور وضع البابوية نحو الأحسن، فأما غريغوري السادس الذي قارع أعتى الحكام الفاسدين في التاريخ، فقد مات في الأسر، وأما غريغوري السابع فكان أعظم الثلاثة، فقد دافع عن سيادة البابا، الأمر الذي جعله ينال لقب قديس، فيما بعد، وقد مات أيضاً في الأسر (ونقرأ في اللوائح الكاثوليكية الرسمية المحتوية أسماء القديسين تحت تاريخ 25 أيار «هو يوم ذكرى القديس غريغوري» في الكنائس الكاثوليكية: إن أسرة هذا البابا لم تكن أسرة نبيلة، ومن المحتمل أنها من أصل يهودي) وأما أناكلت الثاني وهو التلميذ المخلص اللامع لأبيلارد العظيم، فقد قضى معظم حياته كبابا مشغول في النضال ضد ذلك الزاهد الناسك برنارد راعي دير كليرفو، الذي ثار على المبدأ الذي يقول: يحق لليهودي أن يحتل عرش بطرس.

ومن الغرابة بمكان أنه على الرغم من أن أسرة بيرليوني قد اختلطت بالزواج والمصاهرة مع بقية الأسر المسيحية (يظن أن باروخ قد تزوج من إحدى سيدات آل فرانجيباني) إلا أن أفراد أسرة بيرليوني ظلوا محتفظين بالسحنة اليهودية، فكانوا أشد شبهاً باليهود أو المشارقة، منهم بالمسيحيين الغربيين ويتحدث: جميع المؤرخين في العصور الوسطى في تواريخهم حول هذه الظاهرة حتى بما يتعلق بغريغوري السابع، الذي كانت علاقته بآل بيرليوني لا تتعدى المصاهرة، ولكن الأغلب أن تكون هذه العلاقة دموية، ويقول بيترو فيديل، وهو مؤرخ إيطالي من مؤرخي القرون الوسطى أوقف حياته على دراسة آل بيرليوني: لاشك أن أم هيلد براند كانت من آل بيرليوني، وذلك إذا وثقنا بتواريخ بيجوا التي تقول إن غريغوري السابع هو ابن أخت بطرس دي ليون (حفيد باروخ)، ولكن حتى لو ثبت عدم صحة هذه التصريحات في تلك التواريخ، إلا أن لها وزنها في تأكيداتنا أن هيلد براند كان ذا روابط أسروية حميمة مع آل بيرليوني ويبدو أن والدة هيلد براند هي برثا، وأخوها هو رئيس الرهبان في دير سانتا على الأفانتاين، ونحن نعلم أن هيلد براند عاش مع عمه رئيس الرهبان أيام طفولته وشبابه، حيث تربى وترعرع في نظام الأديرة، وكانت العلاقة بين غريغوري السادس (جون جرايتن) وهيلد براند معروفة تماماً، وعندما تعرض غريغوري السادس للنفي تبعه هيلد براند، ولو كان بعد تردد إلى المنفى في ألمانيا، وبعد موت غريغوري ورث ثروته وكان يشعر تجاهه شعور الشكر والامتنان، فهو كان سيده وحاميه، حتى أنه اتخذ لقب غريغوري لنفسه، عندما أصبح بابا، ولهذا ليس هنالك من سبب معقول جدير بالتصديق لتلك العلاقة الحميمة بين هيلد براند والكاهن الأعظم، سوى أنهما كانا قريبين بعضهما لبعض وأنهما كانا من آل بيرليوني وهذا ما أهَّل هيلد براند لوراثة ثروة جون جرايتن، وهذا هو السبب نفسه الذي حدا بوالدي هيلد براند لإلحاقه بجون جرايتن، ومن ثم اللحاق به إلى المنفى في عام 1046م.

لقد تعرض كل من البابوات الثلاثة من آل بيرليوني لهجمات وافتراءات قصد بها تشويه سمعتهم بسبب تحدرهم من أصل يهودي ومع أنه لم يحدث قبل الحروب الصليبية (بدأت عام 1095م) أن ذكر أي شيء عن أصلهم اليهودي إلا أنه لم يخل الأمر من

تلميحات وتعريضات قصد بها الغمز من قناتهم مثلاً ذكر (الأموال المكتسبة بطريقة غير مشروعة وبالربا) وهذه الاتهامات كانت موجهة ضد الغريغوريين الأولين، وأما البابا أناكلت فقد وجد تشهيراً بأصله اليهودي علانية دون خجل في خمس وثائق على الأقل كتبت في العصور الوسطى، وقد لمح ولهلم بيرناردي، وهو من العلماء الألمان البارزين في القرن الماضي، بقوله: «إذا عددنا كم كان اليهود محتقرين في تلك الأيام، عندها نستطيع أن ندرك مدى الاتهام الذي وجه إلى أناكلت الثاني والذي كان فحواه الجوهري، أنه كان يهودياً ذكياً نجح في الوصول إلى مركز البابوية بأمواله، لا بل حتى أولئك الذين خجلوا من التصريح علانية بهذه الأقوال انتابتهم الهواجس داخلياً بسبب تحيزهم اللاسامي، وهكذا أصبحوا يصدقون كل ما يقال من الاتهامات والقدح دون أن يطالبوا أي برهان، أو إثبات على صحتها، وهكذا صاروا يكيلون له الاتهامات سواء كانت صحيحة أو كاذبة، بقصد إسقاطه والقضاء عليه، وكان كل ما يبغي أعداؤه عمله أن يلمحوا إلى تلك الحقيقة، وهي أن أنا سولت كان يهودياً، وعندها يفهم كل إنسان كل شيء دون إضافة أي كلمة، طبعاً، كان هناك فريق من الناس يبتهجون ويفرحون بتحول أي يهودي للديانة لمسيحية، ولكن إنه لأمر فظيع أن يجلس أحد هؤلاء المتحولين على عرش القديس بطرس، وهو أمر لا يمكن لأي إنسان أن يتقبله أو يغفره أو يصفح عنه».

هذا وقد خدم اليهود كمستشارين ماليين لكثير من البابوات، ومن خلال تاريخ الكنيسة، كان اليهود (أحياناً متحولين وأحياناً غير متحولين) هم الأطباء الشخصيون لبعض البابوات، وخازنو مكتباتهم، وعلماء طلبت الكوريا[1] منهم إسداء النصح، وإبداء الرأي في أمور كثيرة، وإنما لم يحدث أن اشترك اليهود بنشاط ملحوظ في الشؤون الكنسية، كما فعل آل بيرليوني، ويعترف (ديمتريوس ب. زلما) وهو أستاذ جيزويتي في جامعة فوردهام، بنشاطهم الحميم، وقد لاحظ أن أسرة بيرليوني كانت من الأسر الثرية للغاية، وأن (جون جرايتن) كان يتمتع بهذه الصفة من حيث الثروة والمقدرة على التمويل،

---

(1) هي الإدارة البابوية، وتشتمل على البابا، وكبار أعوانه من الكرادلة، بصفتهم السلطة الحاكمة في الكنيسة الرومانية الكاثوليكية.

وإن هيلد براند كانت له علاقات وثيقة (بجون جرايتن) وهو سميه في منصب البابوية، ومن المعروف أن هيلد براند هذا كان ذا علاقات مادية مع كثير من البيوت المالية، وبما أنه كان يشرف على حسابات الخزينة البابوية، وكان الممول لكل من دير القديس بولس، والكوريا (الإدارة البابوية) لهذه الأسباب أصبحت علاقاته مع البيوتات المالية أكثر رسوخاً، ولكن فوق كل تلك الاعتبارات، هنالك الحقيقة التي تدعمها شواهد كثيرة وهي أنه خلال مدة أزمة الإصلاح البابوي في روما، وقف آل بيرليوني بثبات وحزم مع البابوات المصلحين، وقدموا لهم المأوى والرجال والمال، وقد شكلوا دوماً هالة من القوة والنفوذ الإيجابي، ضد الأرستقراطية الرومانية والحزب الألماني المعارض، أثناء الصراع بين البابوات الرسميين والبابوات الأدعياء.

وهكذا حتى ولو لم يقدم آل بيرليوني ثلاثة بابوات، فإن دورهم كممولين ومستشارين ماليين للكوريا، وكمؤيدين صامدين أوفياء للبابوات المصلحين، يكفيهم لتسجيل أسمائهم على صفحات التاريخ، ولا عجب أن تظهر أسماؤهم في عدة وثائق رومانية خلال قرن كامل من التاريخ الروماني في القرون الوسطى، فبينما زالت واختفت أسماء عدة أسر رومانية قديمة، وقبعت في زوايا النسيان، استمر آل بيرليوني موجودين في إيطاليا الحديثة، ولا يزالون يعملون بنشاط، كأساقفة أو كتاب أو تجار.

لقد عاش آل بيرليوني في زمن تأزمت به العلاقات بين الكنيسة والدولة وبدأ الصراع مريراً بينهما، وإنه لمن قبيل المصادفات الغريبة أن يكون (ايونيس جراتياتوس بيرليوني) وهو يهودي متحول، هو الذي أدار دفة ذلك النزاع والصراع الحاسم في تاريخ الكنيسة، كذلك حركة الإصلاح العظيمة التي اشترك بها، وأيدها ثلاثة من آل بيرليوني، وبهذا البابا يبدأ فصل جديد من فصول تاريخ الكنيسة، فقد كان الفساد والتفسخ في الكنيسة والبابوية قد بلغ أوجه، ولهذا فقد أصبح الوضع يقتضي بإلحاح وجود شخص حازم يستلم الزمام، ويؤمن للكنيسة إحساساً جديداً بالحشمة واللياقة الأخلاقية، وأن تصدي هذا الرجل ذو الأصل اليهودي ليكون أول تلك السلسلة المتتابعة من الأحبار ذوي الوتيرة العالية من الأخلاق الممتازة، كل ذلك ما هو إلا شاهد ممتع على غرابة تلك الأطوار والنزوات التي كثير حدوثها في التاريخ، ولا يستطيع المرء إدراك كنهها.

إن فكرة وجود بابا يهودي لا تبدو فكرة غريبة بالنسبة لأولئك الذين هم على اتصال تام بتطور الكنيسة، أفلم يكن القديس بطرس وهو مؤسس البابوية يهودياً؟.

إنما يظهر أن الأصول اليهودية للديانة المسيحية، لا تبدو مفهومة تماماً ولا مقبولة بشكل عام، وليست هناك سوى القلة من المسيحيين الذين يتفهمون الأسلوب المرير، والطريق الوعرة التي سلكتها المسيحية الأولى، حتى تخلصت من الرواسب اليهودية، فقد كان يسوع اليهودي الناصري، وبولس اليهودي الطرسوسي، هما الأبوان المؤسسان للإيمان المسيحي، وهما مهندسا هيكل الكنيسة، ولهذا فإذا ما أردنا أن نستأنف قصتنا فعلينا أن نكشف في الفصل القادم عن هذه الأصول ونتفحص التقاليد اليهودية المسيحية للكنيسة.

وإذا فعلنا ذلك، فإننا نكون قد اقتفينا الأصول المثيرة لنمو البابوية نفسها، وعندها نصل إلى النقاط الفاصلة الرئيسة التي تقودنا إلى المعالم الرئيسة في تاريخ العصور الوسطى، ولقد أصبحت البابوية مؤسسة مسلم بوجودها في هذه الأيام، وطويت تلك الاضطرابات والتشويشات التي صادفت البابوات الأوائل وأسدل عليها ستار من النسيان، ومع أن الحبر الأعظم لا يزال يحتفظ ببعض النفوذ السياسي، إلا أنه لم يعد له أي علاقة أو تحالف مع أي من القوى العظمى، إنه يحتفظ بمجرد دور قطب من أقطاب الضمير الأخلاقي العالمي، يقوم بنصحه وإرشاده، لكن لم يعد يمارس أي سلطة، فلقد ذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان البابا يتمتع بها بحق تتويج الأباطرة، وكل من لا يتوجه لا يمكن أن يعد نفسه الحاكم الشرعي لبلاده، وذهبت إلى غير رجعة تلك الأيام التي كان البابوات يخوضون بها المعارك الدامية على رأس الجيوش البابوية، التي سببت لهم إحراز النفوذ السياسي، الذي لم يحلم به أي حاكم علماني، ومن الصعب أن نتصور في هذه الأيام درجة التفسخ والفساد الأخلاقي في البابوية الأمر الذي سبب انحدارها وانحدار المسيحية معها إلى حافة الهاوية، ولا درجة الأمية والجهل التي كانت بين صفوة الاكليرس، والانحطاط الخلقي بين صفوفهم الذي بقي دون رادع ردحاً طويلاً من الزمن، إن عصر السيادة الدينية المسيحية قد ولى إلى الأبد، ولقد أسدل ستار من النسيان على تلك الحقب الحاسمة في العصور الوسطى، التي سببت انقسام العالم إلى معسكرات متعادية، أدت إلى سفك كثير من الدماء، وإلى التعاسة البشرية، كل هذا زال.

وأما قصة النزاع على تقليد المناصب والوظائف التي سببت تلك المواجهة المثيرة والتي غالباً ما كانت مأساوية، بين البابا والإمبراطور فقد نسيت ولم يعد يعلمها إلا القليل، ومع ذلك فإن البابوات الثلاثة من الغيتو الذين نحن بصددهم، وسنذكر قصتهم، قد تورطوا في ذلك الصراع والحرب بين الأفكار، ومع ذلك فلا يمكننا أن نلم إلماماً تاماً، أو أن نفهم فهاً عميقاً مصائر وأقدار هؤلاء المتحولين، دون أن نلقي نظرة على تطور الكنيسة، من أوائل تاريخها حتى زمن اعتلاء غريغوري السادس الكرسي البابوي، وهو أول بابا من آل بيرليوني.